مقدمة

فى الفصاحة والبلاغة

فصل

فى الفصاحة

الفصاحة[١] هي الإبانة والظهور ، وعند أهل البيان عبارة عن الألفاظ البيِّنة الظاهرة المتبادرة إلى الفهم ، والمأنوسة الاستعمال لمكان حسنها. وتكون وصفاً للكلمة والكلام والمتكلّم .

---

١ ــ الفصاحة ، l'éloquence ، منقبة تمكن المرء من أداء أفكاره أداء حسنا يؤثر فى النفس ، ويولى الاقناع . ، يظهر من هذا التعريف أن الفصاحة عند الافرنج غيرها عند العرب ، وأعم ، وبقرب معناها من البلاغة ، وأليق ما يناسب فصاحة العرب هو لفظة : ، la clarté ، اى الصراحة والوضوح

مبحث

في فصاحة المفرد

فصاحة الكلمة هي سلامتها : أولا ـ من تنافر الحروف وهو ثِقَل على اللسان ناشيء من اجتماعها بحيث يتعسَّر النطق بها نحو : مُسْتَشْزَر أي مفتول، وظشّ أي خَشِن.

ثانياً ـ من مخالفة القياس اللغوي وهي أن تكون الكلمة غير جارية على القانون الصرفيّ كفكّ الإدغام في قوله :

الحمد للهِ العليّ الأجْلَلِ الواحدِ الفردالقديم الأوَّلِ

ثالثاً ـ من الغرابة أو الكراهة في السمع كأنْ تكون الكلمة غير ظاهرة المعنى ، أوتنبو منها الآذان كما تنبو عن سماع الأصوات المنكرة : نحو خَوْعَم«أحمق» ، وعشنَّط« طويل القامة»،وَعَفَنْقَس« لئيم»،أو كما في قوله :

قدقلتُ لمّا اطلخمّ الأمْرُ وانْبَعَثت عَشواء تالية غُبساً دهاريسا[1]

وكما في قول الآخر :

وَأحمقَ مِمَّن يكرعُ الماء قال لي : «دعِ الخَمْرَ،وَاشرَبْ من نُقاخٍ مبرَّدِ[2]»

---

١ ـ اطلخم اشتد ، والعشواء الليلة المظلمة ، والغبس : جمع غبساء وهي الشديدة الظلام ، والدهاريس : جمع دهرس وهي الداهية

٢ ـ كرع الماء : تناوله بفيه من الحوض ، والنقاخ : الماء البارد

مبحث

في فصاحة المركب

فصاحة الكلام هي سلامته مع فصاحة مفرداته[1] : أولاً ـ من تنافر الكلمات مجتمعة أومكرّرة دون تحسين ، أو من تتابع الألفاظ . بحيث يكون الكلام ثقيلاً على اللسان ، يتعسّر النطق به كقوله :

وَقبرُ حَرْبٍ بمكانٍ قَفْرُ ، وَليس قُرْبَ قبرِ حربٍ قبرُ[2]

وقول الآخر :

كريمٌ متى أمدحهُ أمدحهُ والورى معي ؛ وإذا مالمته ، لمته وَحْدِي

ثانياً ـ من ضعف التأليف وهو أن يكون الكلام غيرَ جارٍ على القانون النحويّ المشهور[3] كما في قوله :

---

١ ـ فاذا كانت المفردات غير فصيحة ، لم يكن الكلام فصيحا ، وان كان خاليا من التنافر والضعف والتعقيد

٢ ـ حرب علم رجل ، وقفر خبر لمبتدأ محذوف ، وخبر قبر متعلق الجار والمجرور والباء على الاول بمعنى مع ، وعلى الثاني بمعنى في

٣ ـ خروج الكلام عن المشهور الى غيره بوجب عدم فصاحته ، وان وافق بعض المذاهب كزيادة من في الاثبات ، والعطف على الضمير المجرور بدون اعادة الجار ، اما اذا خرج عن المجمع عليه كنصب الفاعل ورفع المفعول فيكون فاسدا لا اعتبار له .

جزى بنوهُ أبا الغيلان عَن كِبَرٍ وحسنِ فعلٍ كما يُجزَى سِنِمَّارُ[١]

ثالثاً ـ من التعقيد وهو أن يكون الكلام خفيّ الدلالة على المعنى المراد ، إما بسبب تقديم ، أوحذف أو إضمار أوفصل ، ويسمَّى تعقيداً لفظيًّا ، كقوله :

جفخت وهم لايجفخون بها بهم شِيَمٌ على الحسب الأغرِّ دلائلُ[٢]

وَإمّا بسبب استعمال مجازات وكنايات بعيدة لايفهم المراد بها، ويسمَّى تعقيداً معنويًّا نحو : نشر الملك ألسنته في المدينة « مراداً بها جواسيسه[٣] » وَقوله :

سأطلب بُعدَ الدار عَنكم لتقربوا وَتسكُبُ عيناي الدموعَ لتجمدا[٤]

كنى بالجمود عن السرور وَالمعروف أن الجمود يكني به عن البخل بالدموع وقتَ البكاء .

وفصاحة المتكلم ملكة[٥] يقتدر بها على التعبير عن المقصود بكلام

---

١ ـ عبر بالمضارع فى يجزى استحضارا للصورة الماضية ، والضمير فى بنوه لابي الغيلان ، وفيه الشاهد حيث عاد الى متأخر لفظا ورتبة ، وهو خلاف المشهور . وسنمار رجل رومي بنى قصر الخورنق بظهر الكوفة للنعمان ملك الحيرة . فلما فرغ منه ألقاه النعمان من أعلاه فخر ميتا ثلا يبنى لغيره مثله . فضرب به المثل فى سوء المكافأة

٢ ـ جفخت : فخرت ، والاغر : الكريم ـ وهاك تقدير البيت : جفخت بهم شيم دلائل على الحسب الاغر ، وهم لا يجفخون بها

٣ ـ الصواب : « نشر عيونه » ، لأن الذى يطلق على الجاسوس مجازا هو العين ، اذ هى المقصودة منه

٤ ـ كنى بجمود العين عن السرور ، وهو بعيد لأن جمود العينين هو بخلهما بالدموع حين ارادة البكاء ـ ومراده : انى اوطن النفس على مقاساة الم الفراق ، وتحمل الاحزان ، لا نوصل الى يوم اجتماع شمل يدوم ومسرة لا تزول

٥ ـ ملكة الفصاحة صفة راسخة فى الانسان تمكنه من التعبير عن جميع اغراضه بكلام فصيح وعليه فلا يسمى فصيحا من عبر عن مقصوده بكلام فصيح فى بعض الاحيان ، وليست عنده تلك الصفة ، ويسمى بذلك من وجدت عنده ، وان لم يعبر بالفعل .

فصيح ، في أيّ غرضٍ كان . والمراد بذلك أنّهُ ، إذا راعى شروط فصاحة المفرد ، وفصاحة المركّب التي مرّت آنفاً ، وتمكّن من التعبير على موجبها ، سمّي فصيحاً .

أسئلة

١ ــ عرف الفصاحة لغة واصطلاحا ٢ ــ متى تكون الكلمة فصيحة ؟ ٣ ــ بماذا تعرف فصاحة الكلام ؟ ٤ ــ مم يتألّف تنافر الكلمات ؟ ٥ ــ متى يعد خروج الكلام عن المشهور إخلالا بالفصاحة ، ومتى يكون فاسد لا اعتبار له ؟ ٦ ــ افرق بين التعقيد اللفظي والمعنوي ٧ ــ ماذا تفهم بفصاحة المتكلم ؟

تمرين

اذكر سبب خروج مايأتي من الكلام عن الاسلوب الفصيح ــ :

١ حلّت به داهية خنفقيق [١] ٢ أدركت المذنب عنقفير [٢] لا مناص له منها ٣ سئل أعرابيّ أين ناقتك . فقال : « تركتها ترعى الخمخم [٣] ٤ سقط عيسى بن عمر النحويّ عن دابّته ، فاجتمع الناس حوله ، فقال لهم : « مالكم تكأكأتم [٤] عليّ تكأكأكم على ذي جنابة افرنقعوا [٥] عني . » فقال بعض الحاضرين : «دعوه ، فإن شيطانه يتكلّم بالهندية.»

٥ واذا الرجال رأوا يزيد رأيتهم خُضُعَ الرقاب، نواكسَ الأبصار

٦ فلا يبرم الأمر الذي هو حالِلٌ وَلا يُحْلَلُ الأمرَ الذي هو مُبْرِمُ

٧ اني إذا أنشدت لا أحبنطي [٦] ولا أحبُّ كثرة التمطّي

---

١ ــ عظيمة ٢ ــ داهية ٣ ــ الخمخم : نبات يتداوى به ٤ ــ تكأكأ القوم : تجمعوا ٥ ــ افرنقعوا : تنحوا وابعدوا ٦ ــ احبنطى الرجل : انتفخ بطنه

٨ فخرٌ مضرجًا بدمٍ كأني هدمتُ به بناءً مشمخرّا[1]

٩ مباركُ الاسمِ أغرُّ اللقبْ كريمُ الجرشّى شريف النسبْ[2]

١٠ يظلُّ بموماةٍ ، ويمسي بغيرها جحيشًا ويعروري ظهورَ المسالك[3]

ما المخلّ بالفصاحة فيما يأتي — :

١ لأنتَ أسودُ في عيني من الظلم ٢ اكرم ابنهُ زيداً

٣ سأجزل جزاء الناجحين ٤ أكلوني البراغيثُ ٥ لم يك الصديق في المنزل ٦ هذه عبارة كتاب صديق زيد .

٧ كساحلهُ ذا الحلم أثواب سؤدُد ورقّ نداه ذا الندى في ذرى المجدِ

٨ ليس إلاّك يا عليُّ همام سيفهُ دون عِرضهِ مسلولُ

٩ والشمس كاسفة، ليست بطالعةٍ تبكي عليك ، نجوم الليل والقمرا[4]

١٠ ومن جاهل بي، وهو يجهل جهله ويجهل علمي ، انه بيَ جاهلُ

١١ دانٍ بعيدٌ، محبٌّ مبغضٌ بهجٌ أغرُّ حلوٌ مرٌّ ليّنٌ شرسُ

١٢ أني: وأسطارٍ سُطِرنَ سَطْرَا ، لقائلٌ : « يا نَصْرُ نصرٌ نَصْرَا »

١٣ تزود مثل زاد أبيك قيسٍ فنعم الزادُ زادُ أبيك زادا

١ــ المشمخر : العالى ٢ــ الجرشى : النفس ٣ــ الموماة : المفازة أى البرية ؛ والجحيش المستبد برأيه ؛ ويعروري : يركب ، والمسالك الطرق . ٤ــ يريد الشاعر أن يقول : الشمس كاسفة نجوم الليل والقمر تبكي عليك فليست بطالعة

فصل

في البلاغة

البلاغة[1] في اللغة الوصول والانتهاء ، ويقال بلغ فلان مراده إذا وصل إليه ، وبلغ المسافر المدينة إذا انتهى إليها ؛ وعند أهل البيان تكون وصفاً للكلام والمتكلم[2]. فبلاغة الكلام هي مطابقته لمقتضى الحال، أي وروده على الصورة التي طلبتها الحال مع فصاحته ؛

والحال ، ويسمَّى « بالمقام »، هو الأمر الحامل للمتكلّم على ايراد عبارته على صورة مخصوصة .

والمقتضى، ويسمَّى « بالاعتبار المناسب »، هو الصورة المخصوصة التي تطلبها الحال فتورد عليها العبارة .

والمطابقة هي ايراد الكلام على الصورة المخصوصة . مثلاً الإنكار حال، لأنَّه يدعو إلى إيراد الكلام مؤكّداً ؛ والتوكيد مقتضى ، لأنه الصورة المخصوصة التي طلبتها الحال؛ وايراد الكلام مؤكّدًا هو المطابقة .

---

١ ــ البلاغة « la rhétorique » : فن يتدرب به على حسن القول . والتكلم بفصاحة فالبلاغة لا تجعل المرء فصيحا وانما تعلمه أن يعرض آراءه بأوثق ما استطاع من الأدلة . فهي عندهم اعم منها عند العرب اذ تشمل علمي البلاغة والخطابة ٢ ــ أي فقط ولا تكون وصفا للكلمة اذ لم يسمع عن العرب ان قالوا : « كلمة بليغة » وانما الذى سمع عنهم « كلام بليغ » ، ومتكلم بليغ » ، كما سمع : « كلمة فصيحة وكلام فصيح ومتكلم فصيح »

وكذا المدح والإطناب وإيراد الكلام مطنبًا ؛ فالأول هو الحال ، والثاني المقتضى والثالث المطابقة .

وبلاغة المتكلم ملكة يقتدر بها على التعبير عن المقصود بكلام بليغ في أي غرض كان .

ويعرف التنافر بالذوق ، ومخالفة القياس بالصرف ، وضعف التأليف والتعقيد اللفظي بالنحو ، والغرابة بكثرة الاطلاع على كلام العرب ، والتعقيد المعنويّ بالبيان ، والأحوال ومقتضياتها بالمعاني.

فبناء عليه وجب على طالب البلاغة أن يعرف اللغة ، والصرف والنحو ، والمعاني والبيان ؛ وأن يكتسب سلامة الذوق ، ويكثر من الاطّلاع على كلام العرب .

مبحث

في مراتب البلاغة

عرفت مما تقدّم أن مرجع الفصاحة اللفظ ، دون المعنى ؛ وأن مرجع البلاغة الألفاظ والمعاني معاً ، وللبلاغة طرفان : أعلى ، وهو ما يقرب من حدّ الإعجاز ؛ وأسفل ، وهو ما اذا غُيِّرَ الكلام عنه الى ما هو دونه في المرتبة التحق بأصوات البهائم ؛ وبينهما مراتب كثيرة مختلفة ، بعضها أعلى من بعض ، بحسب تفاوت المقامات ، ورعاية الاعتبارات ؛ وتتبعها

وجوه أخرى غير المطابقة والفصاحة تورث الكلام حسناً ، وهي أنواع البديع .

لا يخلو من أن يكونَ فى الجملة الأمر الداعي الى التكلم مفرداً أو متعدِّدا ، فيكون المقتضى واحداً أو أكثر ؛ فان طابقت المقتضيات في الجملة كافة الأحوال دون إخلال ، وشُفع تركيبها بشيءٍ من المحسنات البديعيّة ، كان الكلام في أعلى مراتب البلاغة ، مُدرِكا حدّ الإعجاز ، وإلاَّ فهو في مراتب مختلفة يسفل بعضها عن بعض ، بحسب التفاوت بين الأحوال والمقتضيات وندور المحسنات البديعيّة ما؟

أسئلة

١ ــ ما البلاغة لغة واصطلاحا ؟ ٢ ــ بماذا تعرف بلاغة الكلام ؟ ٣ ــ ماالحال : والمقام ، وما المقتضى أو الاعتبار المناسب ، وما المطابقة ؟ مثل لما تقول ٤ ــ بين الحال ومقتضاه فى قولك لمنكره إن من البيان لسحرا ، ٥ ــ متى يعد الكلام بليغا ؟ ٦ ــ كيف يحترس مما يخل بفصاحة المفرد والمركب ؟ ٧ ــ كيف يعرف التعقيد المعنوى؟ومم تعرف الاحوال ومقتضياتها ؟

تمرين

ا ــ وضّح الحال في مخاطبتك : الخالي ، والمتردّد ، والمنكِر بهذه الجملة : « الحقّ يعلو ، ولا يُعلَى عليه. »

ب ــ وضّح المقتضى في مخاطبة : الذكي ــ البليد ــ الممدوح ــ البخيل ــ الملك ــ المساوي ــ الأدنى ــ القويّ ــ الظالم ــ الصديق .

ج — متى يلجأ إلى الإطناب في الكلام ، أو التوكيد ، أو الإيجاز ، أو التفخيم أو التعريض ، أو الصراحة .

د — ما مقتضى التقديم فيما يلي : — ١ على أهلها تجني براقش — ٢ منك أنفك ، وإن كان أجدع — ٣ للشدائد تذخر الرجال — ٤ ماء شَرِبتُ — ٥ شعراً نظمت — ٦ جميلَك تمّم

هـ — اذكر الأحوال ومقتضياتها ، وبين بلاغة الكلام أو عدمها فيما يأتي مشيراً إلى السبب — : ١ إنّ البغاث بأرضنا تستنسر ٢ ليس الحريص بزائد في رزقه ٣ الحاجة تفتق الحيلة ٤ انّ دواء الشقّ أن تحوصَهُ ٥ فمي يحدِّثُ بعدلك ، اللهمَّ ، النهارَ كلَّهُ ٦ الابن الحكيم يسرُّ أباه ، والابن الجاهل غمة لأمِّهِ

٧ رأيتُ النفسَ تكره ما لديها وتطلب كل ممتنع عليها

٨ ماذا تقول لأفراخٍ بذي مَرَخٍ ، زُغب الحواصل ، لا ماء ولا شَجَرُ
ألقيت كاسبَهم في قعرِ مُظْلمةٍ ، فاغفِرْ ، عليك سلام اللهِ ، يا عُمَرُ

٩ لئن كنتَ قد بُلِّغتَ عني خيانةً لَمُبْلِغُك الواشي أغشُّ وأكذبُ

١٠ قذًى بعينِك أم بالعينِ عوَّارُ أم ذَرَّفت إذ خَلَتْ من أهلها الدارُ